كيف نشأت المدنية فى مصر

يمتاز أسلوب العلماء وطلاب العلم فيما يكتبون بدقة التعبير وتحديد دلالات الألفاظ والمصطلحات تحديداً دقيقاً ينتفى معه اللبس وتجتنب مواطن الخلط وسوء الفهم . ومن المصطلحات التى يعرض لها المعنيون بدراسة التاريخ البشرى العام ، ألفاظ ثلاثة يحسن بنا أن نحدد معانيها وما يقصد بها تحديداً واضحاً . وتلك هى : الحضارة ، والمدنية ، والثقافة . وهى ألفاظ درج كتاب العربية على أن يضفوا عليها معانى فضفاضة بعض الشئ . ويحسن بنا قبل أن نعالج نشأة المدنية أن نحدد ما نقصد بكل من تلك الألفاظ الثلاثة ، أو أن نصطلح — فى القليل — على دلالات كل منها ولو مجرد اصطلاح .

ولفظ الحضارة أكثرها شمولا وأوسعها دلالة . فهو يشمل مجموع نتاج الجهود البشرية على سطح الأرض أو فى جزء منه ؛ وهو يجمع بين الناحيتين المادية وغير المادية من حياة الانسان ؛ ثم هو يمتد فى الزمان كما يمتد فى المكان ؛ ولا يجوز اطلاقة إلا بهذا المعنى الواسع الشامل ، فيقال الحضارة البشرية ، أو يقال حضارة الشرق ، أو حضارة مصر القديمة ؛ يقصد بذلك أسس الحياة المادية وأدواتها ووسائلها التى ابتكرها الانسان ليحصل على قوته ومعاشه فى البيئة ، كما يقصد الحياة ذاتها بمظاهرها ونظمها وألوانها المادية والمعنوية جميعاً ، بل يقصد بها وصف تلك الحياة فى فترة من الزمن قد تطول أو تقصر حسبما تحياه تلك الحضارة . أما لفظا المدنية والثقافة فأضيق كثيراً فى مدلولهما ؛ بل هما فى الحقيقة يدلان فيما بينهما على ما يجمعه لفظ الحضارة بمفرده . والمدنية يقصد بها — أو لعلنا نستطيع أن نصطلح على ذلك فى هذا المقال — ذلك الجانب المادى من حياة الانسان ، وما تتفتق عنه حيلته فى تيسير أسباب حياته العملية ؛ فهى تشمل الحرف بأنواعها المختلفة ،

من صناعة ، وصيد للحيوان أو عى له ، ومن زراعة واستنبات للنبات أو استغلال له ، ومن تجارة وتبادل ، ومواصلات وطرائق للتعامل والاتصال ؛ كما تشمل بعض الفنون العملية فى الحياة ، كبناء المسكن أو غير ذلك . أما الثقافة فتشمل الجانب غير المادى من حياه الانسان ، ففيها الناحية الروحية ، والناحية العقلية والفكرية ، وناحية الذوق و إشباعه بالفنون الجميلة المختلفة ، ثم ناحيه التعبير عن كل هذه الجوانب من حياة الانسان ، بل من الحياة المادية ذاتها بوساطة اللغة وفنونها الأدبية [1] ومع ذلك فالحد الفاصل فى الدلالة بين المدنية والثقافة لا يمكن أن يكون واضحاً دقيقاً . ذلك أن بعض ألوان الثقافة ، كالفن مثلا ، قد ينصب على ناحية مادية من حياة الانسان ، كما هو حاصل فى حالة فنون العمارة والزخرفة مثلا ، فهى من بعض نواحيها جزء من المدنية المادية ، ولكنها مع ذلك تشبع غاية نفسية و إحساساً ذوقيا عند الانسان ، كما يتجلى فيها نزوع النفس أو الروح أكثر مما تتجلى حرفة البناء أو حرفة الزخرفة من حيث هما عمل مادى آلى . والواقع أن الانسان مهما اصطنع فلن يستطيع ، بحكم تكوينه ، أن يفصل فصلا تاما بين حياته المادية وحياته المعنوية أو غير المادية . ولكن من الخير لنا مع ذلك أن نلتزم حدود الدقة بقدر الامكان عند ما نتكلم عن المدنية أو الثقافة ونصيب كل منهما فى تراث حضارتنا العام .

و إذا نحن اتفقنا على هذا الاصطلاح فى التعريف ، فقد يكون واجبا أيضاً أن نتفق منذ البداءة على ما نقصد « بالمدنية المصرية » . فنحن إنما نقصد بها تلك الحياة المادية التى حياها المصريون أو سكان مصر على ضفاف نهر النيل ، والتى ارتبطت فيها ألوان معيشتهم وما حققوه فى مجال المادة والعمل بظروف هذه البيئة المصرية التى ميّزت حياتهم وطبعتها بطابعها المصرى الخاص . بل إننا نقصد بهذه المدنية ما كان من « تفاعل » بين البيئة والانسان ، انتهى إلى هذه الحياة المستقرة العاملة ، التى سارت مع الزمن ، واتصلت فى بعض الأعصر بحياة غير المصريين وأبناء الوادى من شعوب

---

(١) للكاتب مقال موضوعه «مصر حلقة الاتصال الثقافى بين الشرق والغرب» ، وقد حاول فيه أن يعرف الثقافة بمعناها الأعم . أنظر « الكاتب المصرى » عدد ٣ (ديسمبر ١٩٤٥) .

الشرق أو شعوب الغرب ، ولكنها مع ذلك احتفظت بميسمها الخاص ، وبكثير من أسسها ومقوماتها الأولية ، لا لشئ إلا لأنها كانت أصيلة فى بيئتها النيلية ، التى وفرت لها من عوامل الدوام والاستمرار والتجديد ما سنحاول أن نكشف عن بعضه فى هذا المقال .

ويرجع أول ارتباط للحياة بالبيئة المحلية فى مصر إلى ما نسميه بالعصر الحجرى القديم الأعلى . ومع أن علماء عصر ما قبل التاريخ لا يميلون كثيراً إلى تقدير حضاراتهم بالسنين والتواريخ ، فقد لا نكون بعيدين كثيراً عن الحقيقة إذا نحن قدرنا تاريخ هذا الدور الأول من أدوار الحياة والمدنية فى مصر بأنه يرجع إلى حوالى العشرين ألف سنة . وفى هذا العصر بدأت صناعة الآلات الحجرية فى مصر تتخذ طابعاً خاصا بها يميزها من صناعات بقية العالم القديم ، بما فى ذلك فلسطين ذاتها مع أنها بلد مجاور . ويظهر أن مصر لم تتلق غزوات كثيرة فى ذلك العهد ؛ لأن نهر النيل لم يكن قد اتخذ صفته الخاصة التى أغرت به سكان الصحارى فيما بعد . ذلك أن الصحراء إذ ذاك لم تكن جافة ولا عديمة النبات ، إذ كان هناك ما يعرف باسم العصر المطير ، وكان نظام المطر والنبات فى صحارى مصر والشرق العربى المجاور يشبه ما نعرفه الآن فى حوض البحر المتوسط . وبذلك وجد الانسان كفايته من النبات والحيوان وصيد البر ، ولم يستشعر حاجة لأن يسعى إلى وادى النيل ومجراه . وبعبارة أخرى لم يكن هذا الوادى مطمعاً لأولئك الصيادين القدماء فى العصر الحجرى القديم الأعلى . وبذلك استطاعت العناصر التى تعيش فيه وقريباً منه أن تتابع حياتها فى أمن نسبى ، فاتخذت صناعاتها ذلك الطابع الخاص ؛ وكان ذلك أول دور من أدوار تخصص المدنية الأولى فى مصر .

ثم جاء دور لاحق فيما نسميه العصر الحجرى الحديث . وترجع بداءته إلى حوالى سبعة آلاف سنة خلت . وفيه تعلم الانسان أن يستنبت النبات بدلا من أن يكتفى بالجمع والتقاط الحب والثمرات من نبات الطبيعة البرى ، كما تعلم استئناس الحيوان وتربيته بدلا من اقتناصه وصيده . وكان هذان انقلابين خطيرين فى حياة الانسان إلى أبعد الحدود ، بل إن بعض الباحثين يرى فيهما أخطر انقلابين فى تاريخ الانسانية كله . فبعد أن كان الانسان يعيش عيشة هدم واستغلال قصير النظر لموارد الطبيعة ، أصبح يعيش بطريقة

« إنتاجية » ، وأخذ يعاون الطبيعة ويستدر خيراتها بدلا من أن يستغلها بما يؤدى فى النهاية إلى الاقفار والاجداب . ولابد أن موارد الانسان قبل أن يهتدى إلى استنبات النبات واستئناس الحيوان كانت محدودة ، كما كانت حياته شاقة عقيمة . أما بعد ذلك فقد تعلم كيف يصبح صديقاً للطبيعة بدلا من أن يكون عدوا لها وحرباً عليها ؛ فعمل على أن يزيد من مواردها ويسخّر فيض تلك الموارد لصالحه ؛ وتضاعفت بذلك موارده فى الحياة ، فازداد عدد السكان بل تضاعف . كما أن الزراعة وتربية الحيوان كانتا موردين منتظمين ومضمونين إلى حد كبير ، بخلاف الصيد الذى يتوقف كثيراً على عنصر الحظ والمصادفة . وليس من شك فى أن حياة الزراعة والرعى كانت أكثر ضماناً وأوفر أماناً من حياة الصيد التى يتهددها الجوع فى كل حين . ولقد كان ضمان العيش وأمانه عاملين أساسيين فى بناء الحياة المطمئنه ؛ تلك التى يستطيع فيها الانسان أن يفرغ إلى شئ من العيش المتمدن حقا ، بل إلى العيش الذى يجمع بين المدنية المادية والثقافة الروحية والعقلية ، وهما كما ذكرنا أساس كل حضارة .

وليس هذا مجال الافاضة فى نشأة الزراعة والرعى ، وما كان لها من أثر فى تاريخ الحضارة ؛ فذاك موضوع قد يستحق مقالا بذاته . ولكن من الخير هنا أن نشير إلى بعض العوامل فى البيئة المصرية ، مما ساعد على نشأة كل من هاتين الحرفتين العظيمتين من حرف الانسان فى بداءة حياته الآمنة وحضارته المستقرة .

كان العصر المطير قد انتهى قرب نهاية العصر الحجرى القديم ؛ وجاءت فترة جفاف فى صحارى مصر ، يقال إنها كانت سبباً فى نزوح السكان من الصحارى والتجائهم إلى جوانب وادى النيل حيث الماء والحياة . ولم يقتصر النزوح بالطبع على الانسان وإنما شمل كذلك الحيوان الذى كان يعيش على نبات الصحراء . وبذلك أصبح الانسان والحيوان فى واد واحد ، وفى مجال ضيق محصور ، كان لابد فيه للانسان من أن يحارب المفترس من الحيوان حتى يقضى عليه ؛ كما كان على الوديع من الحيوان أن يعيش فى جوار الانسان ويأنس إليه ، مما يسّر مهمة الاستئناس . وهكذا كان جمع الطبيعة للانسان والحيوان فى مكان واحد إيذاناً بعهد جديد ، عاون الانسان فيه الطبيعة على نحو يزيد من إنتاجها ، بدلا من أن يسير على استغلالها

استغلالا هداماً كما كانت الحال فى عهد الصيد والقنص . وطبيعى أن وادى النيل كان من خير المواطن لهذا النوع من الحياة . ولكنه كان فى الوقت نفسه وطناً صالحاً لأن يهتدى فيه الانسان إلى نوع آخر من الحياة المنتجة هو الذى تمثل أيضاً فى استنبات النبات . ففى هذا العهد الذى قلّت فيه الأمطار فى صحارى مصر ، وإن كانت قد تجددت بعض الشئ فيما بعد فزاد المطر زيادة طفيفة للغاية ، اعتمد النيل اعتماداً كليا على منابعه العليا عند خط الاستواء وفى الهضبة الحبشية ؛ واتخذ فيضانه دورته المعروفة من ارتفاع ذروة الماء فى أواخر الصيف وأوائل الخريف ، ثم انحساره عن جوانب الوادى فى أواسط الخريف وأواخره ، وهو موعد مناسب جدا لزراعة المحاصيل الشتوية . بمعنى أن النيل كان يطغى على جوانبه فيغذيها بالماء والغرين ، أى يعدها للانبات ، ثم ينحسر عنها فى أصلح الأوقات لأن تنمو فيها نباتات الشتاء وحبوبه كالشعير والقمح ، وهى لحسن المصادفة (لاسيما أولها) من النباتات التى كانت تنمو برية بطبيعتها فى شمال إفريقية الشرقى وما جاوره من أقطار آسيا الغربية . والظاهر أن طبيعة النيل وموعد فيضانه قد ساعدت على أن يتعلم الانسان فى مصر زراعة مثل هذه النباتات . ومن اليسير أن نتصور أن تكون نشأة الزراعة فى مصر قد جاءت نتيجة لتطور بطئ تعلم فيه الانسان هذا الفن من الطبيعة نفسها ؛ ففى فصل انحسار ماء الفيضان تذرو الرياح بعض النباتات البرية وحبوبها من حافة الوادى إلى أراضيه الخصبة التى انحسر عنها الماء ، فتنبت تلك النباتات بطريقة طبيعية برية ، وتتغذى من ثرى التربة النيلية السخية ، ثم تأتى أمطار الشتاء المصرى فتغذى النبات وتمده بالماء حتى يكتمل نموه ونضجه فى أشهر الربيع فيحصده الانسان . ولا يبعد أن تكون القبائل المنتشرة على حافة الوادى فى ذلك الوقت قد راقبت هذه الدورة الطبيعية عاماً بعد عام ، فاهتدت عن طريق المشاهدة إلى أن تقلد الطبيعة ؛ فكان الانسان فى أول الأمر يحرس حقول الشعير البرى مثلا بعد أن تنبت برية وحشية ، فيمنع الحيوان من أن يأكلها والطير من أن يقتات من سنابلها وحبها عند نضجه ، حتى يتم الحصاد . ولا يبعد أن يكون ذلك قد مثل مرحلة من مراحل نشأة الزراعة بطريقة يتعاون فيها الانسان مع الطبيعة ، فيكمل عملها ويبنى عليه ، حتى

ينتهى الأمر به إلى أن يتولى بنفسه غرس الحب واستنباته ، وبذلك يصبح زارعاً بالمعنى الكامل الصحيح .

واذا صح هذا التصوير لنشأة الزراعة فى مصر — وهو ما تهدينا إليه الدراسات المفصلة لعصر ما قبل التاريخ ونشأة المدنية الزراعية فى وادى النيل — فان الانسان يكون قد تعلم الزراعة من الطبيعة ، ويكون النيل قد مهد لأن تقوم على جوانبه تلك الحياة الزراعية المستقرة القديمة ، التى رأينا أنها ترجع إلى نحو سبعة آلاف من السنين .

ولكن المهم أن الزراعة فى مصر لم تكن من النوع العادى الذى ظهر فى كثير من جهات الأرض ، فلم ينته بالحياة إلى أن تتقدم وترتفع بالجماعات الزراعية من مرحلتها البدائية إلى مرحلة رفيعة نسبيا من الناحية الاجتماعية . فالزراعة فى غير مصر كانت تقوم كلها على المطر . وما كان على الزارع إلا أن ينقر حفرات صغيرة فى الأرض يضع فيها الحب ثم يتركه للمطر يسقيه ويغذيه حتى يتم نضجه فيحصده . وهذا النوع من الزراعة يعرف بالنوع الغطرى ؛ وهو وإن كان قد ارتفع بأهله فوق مستوى الجمع والالتقاط ، وآمن حياتهم ووقاهم شر الجوع ، فانه مع ذلك لم يعلمهم التضامن الاجتماعى ، فاستطاع الزارع أن يزرع بمفرده أو أن يستعين فى حرفته بأسرته الصغيرة دون حاجة إلى الارتباط بمجتمع كبير . وبذلك بقى المجتمع مفككا ، ولم ترتفع حياة الزارعين إلى مستوى من التضامن الاجتماعى ومن تداخل المصالح المادية بين الأفراد والجماعات الصغيرة يفرض على تلك الجماعات وأفرادها نظاماً معيناً من الحكم هو أساس الحياة المتمدنة بمعناها الاجتماعى المعروف . فضلا عن أن مثل تلك الزراعة الفطرية لا يجد صاحبها حاجة لأن يستمسك بحقل معين يستقر فيه ويقصر جهوده عليه ، وإنما هو يستطيع — بل يفضل — التنقل من عام لعام ، فيزرع فى كل سنة قطعة جديدة من الأرض لم يضعفها الانبات فى موسم سابق . وبذلك كله لم تكد صلة الزارع بحقله أو موطنه المستقر توجد ؛ وذاك ما حدث فعلا فى بعض جهات إفريقية الداخلية مثلا ، حيث نشأت الزراعة وبقيت على أصولها الفطرية ، فلم تتقدم بالمجتمع فى سلم المدنية والحياة المستقرة ، بل بقى بدائيا متنقلا ، واستمر فطريا فى حياته وحضارته العامة . أما فى مصر فان الزراعة قامت فى أرض تغمرها

مياه النيل ؛ وكان من الضرورى منذ البداءة أن ينظم فيضان هذا النهر إذا أراد الزارعون أن يتوسعوا فى أرضهم التى يفلحون ؛ وهذا التوسع لا يمكن إلا أن يكون داخل حدود الوادى وفى الأرض التى يجدد خصبها هذا النهر العظيم فى كل عام . وبذلك كله لم يكن هناك مجال لأن يتنقل الزارع من حقل لحقل فى كل عام ، بل كان عليه أن يستمسك بحقله ، ينظم فيضان الماء عليه فى كل عام ، ثم ينتظر انحسار الماء عنه ليغرس الحب فى أرضه الطيبة المجددة . وكان تنظيم ماء الفيضان هذا عنصراً هاما من عناصر الجد والكفاح فى الزراعة والحياة الزراعية المصرية منذ نشأتها الأولى ؛ لأنه كان عملا ضخماً يقتضى تضافر الجهود فى المجتمع . فالزارع لا يستطيع وحيداً أن يقيم الجسور ليقسم الوادى إلى حياض يمر فيها ماء الفيضان مروراً منظماً يمكن معه أن يرسب الغرين بانتظام على سطح التربة ؛ ولا يستطيع أن يحفر القنوات التى تحمل الماء من النهر إلى الحوض ثم تصرفه عنه بعد أن يكون قد أرسب ما به من غرين . لذلك كان من الضرورى أن تتضافر جهود الزارعين فى مصر من أجل تنظيم رى الأرض . وبدون هذا الرى المنظم لا يمكن للزراعة أن تتقدم ؛ لأن الأمطار فى الخريف لا تكفى لانبات النبات ، وإن كانت كافية لأن تغذيه وتمد التربة ببعض الرطوبة أثناء فصل الشتاء . لذلك كله كانت الزراعة فى مصر مختلفة عن تلك الزراعة الفطرية التى سادت معظم إفريقية ؛ فهى زراعة من نوع يستلزم العمل الشاق والجهد المنظم والتضافر الاجتماعى ؛ وهى عوامل أساسية فى نشأة الحضارة بمعناها العام ، بل هى أساسية بصفة خاصة لنشأة النظام والادارة و « الحكومة » فى مثل هذا المجتمع القديم . وهكذا قام « الحكم » على أساس الحاجة والضرورة فى حياة الزراع منذ أقدم عهود الاستقرار على ضفاف النيل ، وانتهى أمر الزراعة فى مصر بان أصبحت أداة للحياة المتمدنة ، حتى غدا وادى النيل الأدنى موطناً من مواطن المدنية والحضارة الأولى فى إفريقية والشرق القديم .

ولكن نشأة المدنية فى مصر لا تقتصر على الزراعة وفلاحة الأرض ، وإنما هى تشمل الحياة والاستقرار والسكنى فوق أرض هذا الوادى الذى يغمره الفيضان فى كل عام . وقد استدعى استواء الأرض أن تقوم قرى

الزراع فوق كومات صناعية من التراب تبنى المساكن فى أعلى ذراها لتكون بمأمن من الفيض الجارف . وما كان لزارع بمفرده ، ولا لمجموعة صغيرة من الزراع ، أن تقيم مثل هذه الكومة التى يجب أن تكون من الضخامة بحيث تثبت للماء والتيار ؛ وإنما ينبغى أن تتضافر جهود عدد كبير من الزراع فى إقامة هذا التل الصناعى ، وينبغى أن يعيش هؤلاء الزراع فى بيوت تكتظ وتتكاثر فوق هذه التلال المبعثرة فى أرض الوادى . وبذلك فرضت الطبيعة على أهل هذا الوادى أن تتضافر جهودهم ، وأن ينظم الحكم بينهم فى قرى تتمثل فيها روح التعاون والتضامن والتكافل ، وتنشأ بين أفرادها الحرف المختلفة التى تتصل بالحياة الزراعية من جهة ، وبحياة القرية العامة من جهة أخرى . فهذه القرى يجب أن تنظم أسباب العيش فيها والدفاع عنها وقت الحاجة ، كما يجب أن ينظم اتصال بعضها ببعض فى التبادل وغيره بوساطة القوارب أو فوق الجسور أيام الفيضان . وهذا كله يستلزم قيام حكومة وادارة ، ويستلزم بمعنى آخر تنظيم الحياة العامة لزراع الوادى وسكان قراه ؛ وهذا أساس آخر من أسس الحياة المتمدنة ، تلك التى نشأت فى قرى مصر ، ثم امتدت فشملت أقاليمها ، ثم وجهيها القبلى والبحرى ، قبل أن تشمل الأرض كلها ، وتقوم حكومة مصر الزراعية الموحدة عند مطلع التاريخ .

وهكذا وُضعت أسس الحياة المستقرة والمدنية التى تقوم على العمل المنتج والتضامن الاجتماعى ؛ بل هكذا وضعت أسس الحكم والنظام فى مصر قبل أن يبزغ فجر التاريخ . وكانت حياة المصريين وجهودهم ومدنيتهم فى ذلك كله متأثرة أشد التأثر وأبلغه بظروف البيئة الطبيعية ؛ تلك التى امتازت على الخصوص بتكامل عناصرها فى هذا الوطن الصالح ، ولقد تمثل ذلك التكامل فى صور وأشكال متعددة ، ربما كان أظهرها ما نلحظه فى دورة الفصول فى مصر . فالنيل يعلو بالفيضان كما ذكرنا فى أواخر الصيف وأوائل الخريف ، ثم ينحسر فى وقت الانبات بالذات ، فتبدأ الأمطار عقب ذلك وتستمر طول فصل نمو النباتات الشتوية حتى يقبل موسم الحصاد فيحل الجفاف ، وينخفض مستوى النهر إلى أدناه ، وتبقى الأرض بواراً تصليها أشعة الشمس خلال النصف الأول من الصيف ، فتجففها وتطهر تربتها من الآفات والحشائش

الضارة التى تمتص خير الأرض ولا تفيد شيئاً ، بل تشقق حرارة الشمس سطح الأرض وتسمح للهواء بالنفوذ إليها وتغذيتها بعناصره المفيدة ؛ حتى إذا ما ارتفع ماء الفيضان ملأ شقوق الأرض وتسرب إلى الأعماق وغطى السطح بطبقة من الغرين تغذى التربة وتعدها للعام الزراعى الجديد . وهكذا تضافرت عناصر البيئة الطبيعية وأتم بعضها بعضاً فى دورة منتظمة على طول العام ، من نظام النهر فى الفيضان والتحاريق ، إلى نظام المناخ بين الشتاء المعتدل الممطر والصيف المشمس الجاف . وبهذا كله كانت الطبيعة فى خدمة الانسان ، وتهيأت البلاد لأن تكون مسرحاً صالحاً لنشأة المدنية الزراعية ، وما يتصل بها من حياة الاستيطان والاستقرار . ولم يكن على الانسان إلا أن يأتى بجهده فى الوقت المناسب ، ويسخر الطبيعة لصالحه ، فتجرى الأمور فيها على نظام رائع بديع ، زاد من روعته وإبداعه أنه كان متكرراً بانتظام وفى دقة عجيبة على مر السنين والأعوام .

وقد تجلى مبلغ تكامل عناصر البيئة فى ظاهرة أخرى غير الزراعة . ذلك أن النيل كان يجرى من الجنوب إلى الشمال ، فيدفع تياره الفلك فى ذلك الاتجاه ، على حين كانت الريح السائدة فى مصر تأتى من الشمال إلى الجنوب فتملأ أشرعة تلك الفلك وتعينها على التصعيد ضد التيار . وهكذا أصبح مجرى النيل شرياناً للمواصلات والتجارة بين الدلتا والصعيد . ولو أن النهر كان يجرى من الشمال إلى الجنوب ، أو لو أن الريح السائدة فى مصر كانت تأتى من الجنوب إلى الشمال ، لما استطاعت مصر أن تستكمل أسباب وحدتها فى ذلك العهد السحيق ، عند ما اتصل أهل الجنوب بأهل الشمال ، وسبقت مصر غيرها من الأمم ، فظهرت موحدة أيام الملك نارمر (مينا) منشئ الأسرة الفرعونية الأولى قبل الميلاد باثنين وثلاثين قرناً أو تزيد من الزمان .

بمثل هذه المقومات جميعاً نشأت المدنية فى مصر ، وكانت نشأتها قديمة إلى أبعد مايكون القدم فى الحياة الزراعية المستقرة . . . بل بمثل هذه المقومات جميعاً سبقت مصر غيرها من الأوطان فى الحياة المتمدنة ، وفى مظاهر الحضارة بمعناها الأوسع الأعم . وعندما وحد نارمر وجهى هذا القطر الأمين ، وخرج على الناس بمصر التاريخية ، لم يكن ذلك

« بداءة » عهد جديد كما كان المؤرخون يقولون فى وقت من الأوقات ؛ وإنما كان فى الواقع « نهاية » عهد طويل من التطور البطىء فى مصر ؛ ذلك التطور الذى أخذت دراسة عصر ما قبل التاريخ تكشف عنه رويداً رويداً فى هذه العقود الأخيرة من السنين . . . وكلما زاد الكشف عن معالم هذا العصر برزت أمامنا عظمة هذه البيئة السخية ، وهذا الشعب الذى عاش فيها ووضع أسس المدنية والحضارة فى حياتنا التاريخية ، وكان فى جهاده وكفاحه مهتدياً ببيئته ، مستجيباً لمقتضياتها ودوافعها الظاهرة والخفية ، حتى غدا شعباً عظيماً متضامناً متكافلا منظم الجهود موحد الغايات ؛ فكانت الطبيعة فى خدمته ، وبارك الله فى جهوده ، حتى ازدهرت به الحياة وارتفعت على يديه المدنية ، وطلعت مصر العظيمة على العالم بأقدم الحضارات التاريخية ، وغدت منذ ذاك بحق كنانة الله فى أرضه .

سليمان حزين